وفـــاء . . . !

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب السيد كمال الحريري

كانت عربة القطار غاصة بالركاب منذ « كان » ، والأحاديث تدور على ألسنتهم ، بعد أن تعارفوا أو تآلفوا . وحين مر القطار « تاراسكون » قال أحدهم .

— في هذا المكان تجرى حوادث القتل . وهنا طفق الركب يتكلمون عن سفاك مجهول ، أعجز الأمن وأخذ منذ عامين يعيث فتكاً بأرواح المسافرين فكل أخذ يبدى عنه افتراضاته ويدلى برأيه ، أما النساء فكن ينظرن برعب إلى الليل البهيم من خلال زجاج العربة ، وقد خفن أن يبصرن فجأة رأس ذلك السفاح ، يطالعهن من باب غرفة القطار .

ثم أفاض المسافرون في سرد قصص مرعبة ومصادفات مفزعة ومجابهات مع المجانين في عربات القطار .

كل حاضر كان يعلم حادثة من هذا النوع راح يسردها على شرف جرأته . وما منهم على زعمه ، إلا سبق له أن خوض لصاً أو صرع مجرماً أو جندل أثيما : في ظروف غريبة وبديهة حاضرة وشجاعة فائقة . وأراد طبيب اعتاد كل شتاء عبور جنوب فرنسا أن يدلى بدلوه بين الدلاء فقال .

— أما أنا فلم يسعدني الحظ باختبار شجاعتي في ظروف كهذه ، بيد أني أعرف امرأة من زبائني المرضى « وتوفيت الآن » حدث لها أغرب حادثة يمكن أن تحدث في هذا العالم .

لقد كانت روسية ، واسمها مارى بارانوای ، وهي من كرائم العقائل ، ذات جمال ساحر وحسن رائع . وأنتم تعلمون كم هن جميلات الروسيات ، أو على الأقل كم يظهرن لنا حساناً فاتنات بآنافهن الدقيقة ، وثغورهن الصغيرة ، وعيونهن الزرقاء السنجابية وإن فيهن مزيجاً غريباً من الوقاحة المغرية ، والكبرياء الحلوة والقسوة العطوف ، التي تجتذب قلب الفرنسي وتأسره .

وفي الحق قد يكون اختلاف الجنس هو الذي يربي فيهن هذا النوع من الجمال .

لقد كان طبيبها منذ سنين عديدة ، يراها مهددة بمرض صدري عضال ، وكان يسعى كثيراً أن يحملها على السفر إلى جنوب فرنسا للاستشفاء ولكنها كانت ترفض بإصرار مغادرة « بطرسبورغ » .

غير أنه ، في الخريف الأخير ، وقد أيقن الطبيب أنها هالكة لو صل إلى إقناع زوجها الكونت ، بالإيعاز لها بالسفر إلى « مانتو » .

فاستقلت القطار وجلست في مقصورة وحدها بالعربة ، أما خدمها ومرافقوها ، فقد شغلوا غرفة خاصة بجانبها . وهناك لبثت حزينة ، بقرب نافذة القطار تطل على الجبال والدساكر والقرى ، وهي تمرمر خاطفاً أمام عينيها . بينما هي وحيدة منبوذة من الحياة ، ليس لها ولد ولا قريب ، غير زوج زال حبها من قلبه ، فألقى بها إلى البلد النازح كما يبعث السيد بتابعه العليل إلى مصحة دون أن يرافقه وعند كل محطة كان وصيفها « إيفان » يأتيها مستعلماً عما إذا كان هناك حاجة تنقصها . ولقد كان خادماً قديماً في خدمة مولاته ، متفانياً في إخلاصه لها ، مستعداً دائما لإنفاذ كل رغبة أو إشارة . واعتكر الليل والقطار يدوي ويهوى هوياً على السكة الحديدية ، وجفن « الكونتس » لم يغتمض لتهييج أعصابها وثوران نفسها . خطر لها فجأة أن تعد ما خلفه لها زوجها حين توديعه إياها من نقود ذهبية فرنسية . ففتحت حقيبتها الصغيرة وأفرغت منها على حجرها موجاً براقاً من المعدن الذهبي . ولكن على حين غرة هبت عليها نسمة باردة . وما كادت ترفع بصرها مذعورة مصعوقة من المفاجأة حتى أخذت قبضة باب العربة تتحرك وتهتز . فذعرت الكونتس وألقت بغتة على نقودها المنتشرة شالا كان في حضنها ثم راحت تنتظر . ومرت لحظات ظهر بعدها رجل عاري الرأس ، جريح الذراع ، يلهث وهو في ثياب المساء . فأغلق باب العربة وجلس يحدق بعينين لماعتين ، إلى جارته . ثم إنه ربط كفه التي كانت تقطر دماً بمنديل . فشعرت الصبية بالخوف يهدها هداً ، وتحقق لديها أن الرجل عاينها وهي تعد النقود ، وإنما أتى إليها كي يقتلها ويستلبها ماعندها . كان يحدق بها منهر الصدر لاهث النفس متشنج عضلات الوجه ، وهو منهي لأن يهاجمها ويسطو عليها بلا ريب . وقال بغتة .

— لا تراعى منى أيتها السيدة . فلم تنطق بكلمة لعجزها عن فتح فمها رعباً ، واستمعت له وقلبها خفاق من الذعر ، وأذناها تطنان طنيناً مدوياً . قال لها .

— إنى لست فاتكا ولا مجرماً أيتها السيدة . بيد أنها ظلت ملتزمة جانب الصمت ، وبدت منها حركة فجائية ، اقتربت منها ركبتاها إلى بعضهما فجرى الذهب من حجرها إلى بساط الأرض ، كما يجرى الماء من الأنبوب . ودهش الرجل ، فأخذ يحدق فى هذا الجدول الجارى من الذهب ... ثم مال فجأة إلى الأرض لالتقاطه . أما هى فربعت ونهضت ملقية على الأرض جميع ثروتها ، ثم هربت إلى باب عربة القطار تود أن تقذف بنفسها ؛ غير أنه أدرك ما عزمت عليه ، فوثب من مكانه وأمسكها بيديه ، ثم أجبرها على الجلوس وقال لها وهى ترتعد بين يديه :

— إصغى إلى أيتها السيدة . لست شريراً ولا فاتكا ، ودليل على هذا أنى سألتقط هذه النقود وأردها إليك ... إنى رجل هالك ومحكوم على بالموت ، إن لم تعينينى على اجتياز الحدود الروسية . وليس بوسعى أن أبسط لك القول أكثر من هذا . ففى خلال ساعة سنصل آخر الحدود الروسية ، فان لم تنجدينى إنى إذاً من الهالكين . ومع ذلك أيتها السيدة ، أقسم لك أنى لم أرتكب قتلا ، ولا اقترفت سرقة أو جرماً يسىء الشرف ويخدش الكرامة . أحلف لك على هذا ، وليس بمقدورى أن أزيدك فى القول . ثم جثا الشاب على ركبتيه ، وأخذ يلتقط النقود ، وينقب حتى عن أصغر قطعة متدحرجة منها ، وحين أنعمت محفظة النقود كما كانت ، ناولها لجارته دون أن ينبس بنت لسان ، ثم انتقل وجلس فى الزاوية الثانية من عربة القطار ، وظل الإثنان ساكنين ، لا يبديان حركة ، ولبثت هى فى صمتها وسهومها وجودها : أسيرة الخوف الذى بدأ ينجلى عنها شيئاً فشيئاً . أما هو فلم يظهر حركة أيضاً ، ولم يبد إشارة . بل استمر مستقيم الجلسة تحدق عيناه إلى الأمام ، ووجهه مصفر اصفرار وجوه الموتى .

على أنها كانت من حين لآخر ترميه بنظرة خاطفة . كان رجلا فى الثلاثين من سنيه ، شديد الفتنة سليم القسمات ، فى وجهه سمة النبل والاستقامة . وظل القطار يخترق حجب الظلام ، ملقياً فى أذن الليل الدامس صفارته الحادة الصارخة ، ولا يكاد يهدأ من سيره ويخفف قليلا من سرعته حتى يستأنف لجبه وهوبه وهديره ، ولكن فجأة ، خفف من مشيته ، ثم انطلقت من قاطرته عدة صفارات ووقف تماماً عن السير .

وبدا الوصيف « إيفان » على باب الغرفة ، يتلقى أوامر سيدته فتأملت الكونتس مارى مرة أخيرة رفيقها الغريب ، ثم قالت لتابعها بصوت أجش

— إيفان ستعود إلى زوجى « الكونت » ، لأنى لست بحاجة إليك الآن . فصعق الرجل وأطل عليها بعينين مفتوحتين دهشة ثم تمتم :

— ولكن يا مولا ... فقاطعته

— لا ، لن تأتى معى ، لقد بدا لى فغيرت رأيى ، وأريد أن تبقى فى روسيا . هاك نفقة رجوعك ، وهيا ناولنى معطفك وقبعتك .

فتجرد الخادم المدهوش من معطفه ، وأنزل قبعته عن رأسه طائعاً دون كلمة ، لأنه تعود من مولاته كل إرادة فاجئة أو رغبة وهوى لا سبيل إلى مقاومته . ثم غادر عربة القطار ، وعيناه تفيضان من الدمع . وتحرك القطار ثم انقذف مخترقاً الحدود ، وحينئذ قالت « الكونتس » لجارها :

— هذه الملابس هى لك ياسيدى ، فأنت منذ الآن « إيفان » تابعى . على أنى اشترط عليك شرطاً واحداً جزاء ما قدمته إليك من جميل الصنع : هو أن لا تكلمنى ولا تفتح معى باباً من حديث ، سواء أكان من أجل شكرى أم من أجل توضيح هذا التصرف معك . فانحنى الرجل المجهول أمامها طائعاً ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة . وبعد قليل وقف القطار من جديد ، ثم طفق موظفون بملابس وبذلات خاصة ، يفدون إلى عربات القطار ، فمدت الكونتس إليهم أوراق السفر ، ثم أشارت إلى الرجل الغريب القابع فى زاوية العربة وقالت :

— هذا تابعى « إيفان » ، وها كم جواز سفره . واستأنف القطار جريانه وهديره ، ومرّ عليهما الليل بطوله ورأسها إلى رأسه لا ينطق ولا تنطق . وأقبل الصباح وقد جاز القطار قرية ألمانية فنزل الرجل المجهول من العربة ، ثم وقف على بابها يقول :

— اعذرينى أيتها السيدة ، إذا أخللت بشرطى معك ... ولكنى حرمتك من خادمك ، فمن الظرف والعدل ، أن أحل

مكانه ... هل أنت محتاجة إلى أمر أنفذه ، فقالت فى برود .

— نعم استدع وصيفتى ، فغادر الغرفة ليقوم بما أمرته ثم اختفى عنها ...

ولما نزلت إلى مشرب المحطة « بوفيه » ، بصرت به عن بعد يرامقها النظر ثم ... ثم بلغ القطار « مانتون » .

وسكت الطبيب المتحدث لحظة ، ثم واصل كلامه يقول : فى ذات يوم ، بينما كنت أتقبل زبائنى فى عيادتى ، شاهدت فتى غرانقاً يدخل علىّ ويقول :

— سيدى الطبيب ، لقد جئت أستعلم منك ، عن صحة الكونتس « مارى بارانواى » فإنى برغم كونى نكرة عندها ، صديق وفىّ لزوجها . فأجبته فى أسى : إنها مشرفة على التلف ، ولن ترجع إلى روسيا ثانية . فاستخرط الفتى فى بكاء مرّ . ثم نهض خارجاً من الغرفة ، وقد رنحه الخبر ومال بعطفه .

وفى نفس المساء ، أنهيت إلى الكونتس ، بأن غريباً جاء يستخبرنى عن أنباء صحتها ، فبدا عليها التأثر ، وراحت تقص كل ما سردته على مسمعكم ثم أضافت .

— هذا الرجل الذى ما كنت أعرفه قبل ذاك الوقت ، يتبعنى الآن كظلى . وإنى لألتقى به الآن دائماً ، فى مراحى ومغداى . وأراه ينظر إلىّ نظرات غريبة دون أن يناقلنى الحديث ، ثم أطرقت لحظة واستأنفت .

— انظر . إنى لأراهنك على أنه الآن واقف تحت نافذتى . قالت هذا ، ثم غادرت كرسيها الطويل ، وراحت تزيح الستار عن النافذة . فإذا بها تبصر الرجل الذى استقبلته فى عيادتى . وكان جالساً على مقعد من مقاعد النزهة ، وعيناه شاخصتان إلى نافذة الفندق . وبمشاهدته إيانا ، نهض وابتعد دون أن يلتفت إلينا ...

ومنذ يومئذ ، كنت شهيد مأساة غريبة : لحب صامت أخرس ، يقوم بين شخصين لا يعرف كل منهما عن الآخر شيئاً . أما هو فقد كان يتعلق بها قلبه ، وتهفو إليها جوانحه . بإخلاص الحيوان الشاكر منقذه من الموت . وفى كل مساء كان يزورنى متلهفاً .

— كيف حالها يا سيدى ؟ يقول هذا وهو يعلم أنى أفهم من يقصد . ولقد كان يستبير عرارة ، حين يعلم أن الضعف والمرض كانا يتخونانها يوماً بعد يوم . وكانت هى تقول لى :

— إنى لم أحاوره فى حياتى إلا مرة واحدة . ومع ذلك يخيل إلى أنى أعرفه منذ عشرين سنة . وكنا حين يلتقيان صدفة ويحييها ترد إليه تحيته فى ابتسامة وفورة فاتنة . وكنت أشيم دلائل السعادة فى وجهها : فهى المهجورة المتروكة من الزوج والأهل ، وهى التى استيقنت من موتها القريب ، كان يشيع فى وجهها الرضى والإطمئنان أن ترى نفسها محبوبة بمثل هذا الإحترام الخالص والشاعرية الملتهبة والإخلاص المحض . ومع هذا كانت ترفض بيأس استقباله والتعرف إلى شخصه أو اسمه . حتى ومكالمته ولو بكلمة . ولقد كانت تقول :

« لا ، لا . إن ذلك ليفسد علينا ما نحن فيه من صداقة غريبة . وينبغى لكل منا أن يظل غريباً عن الآخر » .

وفى الحق ، لقد كان هذا الشاب ، صورة ثانية لشخصية « دون كيشوت » لأنه لم يحاول مرة الإقتراب منها ، كأنما كان يريد أن يستمسك حتى النهاية بالوعد الذى قطعه على نفسه فى القطار : أن لا يحدثها أبدا . وفى الغالب ، حين تشتد عليها نوبات مرضها وضعفها ، كانت تنهض من كرسيها ، وتروح تزيح الستار عن النافذة ، لترى إن كان هو هناك يرقبها ؛ وإذ تبصره جالساً على المقعد جلسته المتأملة الساكنة ، تعود إلى كرسيها وعلى شفتيها بسمة الرضى والسعادة ...

وماتت الكونتس ، فى الساعة السادسة من صباح ذات يوم . فبينما كنت خارجاً من الفندق أقبل علىّ الفتى منطوء اللون بادى الإضطراب وكان على علم بالنبأ الأليم فقال ملتاعاً :

— أتعنى عليك يا سيدى رؤيتها لحظة ، ولو أمامك . فرافقته إلى غرفة المتوفاة ولما مثل أمام سرير الميتة ، تناول يدها وأخذ يلثمها لثمات حراراً طويلة مالها نهاية ... ثم انفلت من الغرفة كمن فقد صوابه وصمت الطبيب من جديد ، ثم قال :

هاكم يا سادتى أغرب حادثة أعرفها عن السفر ، ويجب الإعتراف بأن الرجال مصابون بالخبل . فتمتمت امرأة بصوت خافت :

— إن ذينك المخلوقين اللذين ذكرت هما أقل خبلا وجنوناً مما تظن . لقد كانا ... لقد كانا . بيد أنها لم تستطع متابعة جملتها لأن البكاء قطعها عليها . وبما أن الحاضرين انحرفوا بالحديث عن وجهته كى يهدئوا جأشها ، لم يعلم أحد أبداً ما كانت المرأة تود أن تتم به كلمتها ... لقد كانا ...

(حلب) كمال الحريرى .

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

دليل تليفونات الاسكندرية طبعة أبريل سنة ١٩٤٧

يمكنكم أن تحجزوا الاماكن التى تختارونها للاعلان عن أعمالكم فى دليل تليفونات الاسكندرية الذى سيصدر فى شهر أبريل سنة ١٩٤٧ .

والإعلان فى الدليل المذكور له مزايا خاصة إذ يتجدد كل يوم طوال مدة سريان الطبعة ويتداوله آلاف المشتركين وبه أماكن خالية تسطيعون استئجارها بأسعار زهيدة .

ولزيادة الإيضاح اتصلوا :— بقسم النشر والإعلانات بالادارة العامة — بمحطة مصر